الجولة الثانية

فى الحكم العقلى والعادى والشرعى

لا تكليف فى الاسلام الا اذا وجد العقل • وهذا يدل على أن الحكم العقلى معتمد فى الاسلام ، واذ اعتمدت الملاحظة الكونية كدليل للعقل للوصول الى الله • فذلك دليل على أن الحكم العادى الذى أثر عن وجود عالم الأسباب معتمد فى الاسلام ، واذ كلفنا الله عز وجل أن نهتدى بالقرآن وأن نطيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن نحتكم فيما اختلفنا فيه لله وللرسول صلى الله عليه وسلم وألا نتقدم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فى أمر فذلك دليل على أننا محكومون بالحكم الشرعى • فالحكم العقلى أو الحكم العادى أو الحكم الشرعى كل ذلك معتمد فى الاسلام • وكل منها يكمل الآخر ان فى التكليف أو فى بناء الحياة أو فى قضية المعرفة والعلم ، فبدون اثبات الحكم العادى أى اثبات عالم الأسباب لا تقوم حجة ولا يصل العقل الى أى معرفة ، وبدون اثبات الحكم العقلى فان البناء الشرعى كله لا يقوم • والتكليف فى الأصل لا يثبت واذا لم نعتمد الحكم الشرعى فاننا نكون قد عطلنا الحكمة من عالم الأسباب ولم نعط قوانين العقل مداها ، ولم نبن على هذا المدى فلتكن لنا وقفة عند العقل وأحكامه ، وعند الكون وقوانينه ، وعند الشرع وأحكامه •

الكون وقوانينه

فى هذا الكون المحسوس الممتد الى ملايين السنين الضوئية لا تجد محلا للفوضى ، فالنظام أو القانون المعبر عنهما بسنة الله عز وجل تحكمه ، وهذا الكون وسننه قائمان باقامة الله عز وجل ، فالله عز وجل من أسمائه القيوم ومن أسمائه المهيمن •

كيف نصل الى القانون فى هذا الكون ؟ كيف نعرف هذا الكون ؟ ان الطريق الى ذلك : الحواس والآلة والملاحظة والتجربة والعقل • فبالملاحظة بواسطة الحاسة والآلة ، وبالتجريب وببصر العقل نتعرف على الكون بأجزائه وخفاياه وقوانينه ومظاهره وصغيره وكبيره وامتداداته • ولقد سار الانسان فى هذا شوطا ولا زال يسير •

والاسلام كلف الانسان بالبحث فى هذا الكون فقال تعالى :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض »(١) •

وقال تعالى : **« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »**(٢) •

واذ كلف الانسان بالنظر لاستكناه الكون ومعرفته فشىء عادى اذن أن تكون نتيجة النظر معتمدة فى الاسلام اعتمادا كاملا • ان البحث فى الكون والبحث عن القانون ، واعتماد نتائج ذلك من المسلمات والبديهيات عند المسلمين ، واذا اقتضى ذلك عند غير المسلمين صراعات كثيرة فانه بفضل الاسلام كان ذلك مسلما منذ البداية بل مطلوبا بقدر المستطاع من الانسان وذلك واجب الانسان • ولذلك فعندما سأل بعض المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهلة لماذا يرى الهلال صغيرا ثم يكبر ؟ نزل النص القرآنى :

« يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها »(٣) لم يعطهم جوابا عن الجانب الكونى بل أعطاهم جوابا عن الحكمة التى تترتب عليها أحكام دينية ومن السياق فهم أن عليكم أن تبحثوا لتعرفوا • فهذا واجبكم ومهمتكم • والقرآن نزل ليعلمكم دينكم ، ومحمد صلى الله عليه وسلم بعث ليعلمكم دينكم ، وفى حادثة تأبير النخل فهم من فهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يتركوا التأبير وبعض الروايات واضحة فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يلفت نظرهم الى الصانع فلما فهموا ما فهموا أعلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أعلم بأمور دنياهم فما كان من ظاهرة مادية أو دنيوية أو كونية فعلى الانسان أن يبحث عنها وما أوصله اليه

---

(١) يونس : ١٠١ •
(٢) العنكبوت : ٢٠ •
(٣) البقرة : ١٨٩ •

بحثه فهو مسلم ، والاسلام ليس له موقف منه الا الاعتماد سواء فى ذلك القانون الحياتى أو القانون الاقتصادى أو القانون السياسى أو الاجتماعى أو المادى أو المغناطيسى أو الكهربائى أو غير ذلك والله عز وجل الذى كلف الانسان ، كلفه وهو يعلم دقائق هذا وغيره :

« قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض »(١) .

فالله الذى يعلم سر السموات والأرض كلف الانسان ، فما كلف به الانسان عليه أن يفعله ولا يتناقض ذلك مع أى قانون كونى ومن هنا نفهم خطأ الذين يضعون القرآن والاسلام فى معارضة مشاهدة كونية أو قانون كونى ، ان ذلك ليس محل بحث أبدا .

صحيح ان القرآن تكلم عن مظاهر كونية ، ولكن ليلفت النظر من خلالها الى الايمان وليقيم الحجة على الانسان باعجازه من خلال ذكره للحقيقة الكونية قبل أن يكتشفها الانسان أما ما سوى ذلك مما تصوره بعض الناس معارضة بين القرآن وبين حقيقة علمية كونية أو حياتية فهو وهم عريض مردود على أصحابه سواء كانوا مسلمين أو كافرين .

وما يعتمده الانسان من أجل الكشف عن الحقيقة العلمية أو القانون الكونى من علوم وضوابط أو طرق استقراء أو استنتاج فالاسلام يطالب به ولا يكتفى أن يقف منه موقف الحياد لأن القاعدة العامة فى الاسلام : ما لا يتم الواجب الا به فهو واجب ، وان ما يؤكد وجوب شىء هو القدرة والاستطاعة واحتياجات المسلمين .

ان الأسباب الكونية أو القوانين الكونية هى التى يعبر عنها علماء المسلمين بالأحكام العادية التى يتوصل اليها الانسان من خلال رؤية تكررها واستمراريتها وجزء من هذه الأحكام العادية القضايا التجريبية .

ان كثيرين من الناس استهواهم أن ينطلق الانسان بلا قيود ولا حدود فى البحث عن الكون وقوانينه وظنوا أن ذلك يتناقض مع الدين بل ظنوا أن ذلك يلغى الدين ، وما ذاك الا من قصور نظرهم وجهلهم بالاسلام فلو عرفوا الاسلام لأدركوا أن الاسلام طلب هذا فضلا عن أن يعارض فيه وهذا كله لا يلغى الاسلام ولا يعارضه بل هو جزء منه .

---

(١) الفرقان : ٦ .

العقل وأحكامه

ولكن هل الفكر الانسانى هل عقل الانسان يقتصر على أن يكتشف القانون الكونى ويعرفه فهو مسجل فقط أو مكتشف فى حدود ما تشاهده الحواس ، أو أن العقل أوسع أحكاما من ذلك ؟

ان العقل من خلال المشاهدة والتجربة يكتشف القانون الكونى ولكنه من خلال استقراء شامل لكل القوانين يصدر أحكاما أخرى ومن خلال ما علم يستنتج أمورا لا تقع تحت الحس والتجربة .

واذن فالعقل يصدر أحكاما أخرى منها الاستقرائى ومنها الاستنتاجى وبعض هذه الأحكام لا يحتاج فيها الى تأمل أو نظر بل يصدرها بداهة بحكم ما استقر فيه من معان جعلت كثيرا من الأمور لا يحتاج معها الى أدنى نظر ، فالعقل بمحض البداهة يحكم أن الجسم يحتاج الى مكان ، وأن النقيضين لا يجتمعان فلا تجتمع حركة وسكون ولا بياض وسواد ، وهكذا فان الأحكام العقلية تكمل الأحكام العادية فى اقامة صرح المعرفة للانسان ولو اقتصر الانسان على تسجيل الملاحظة واكتشاف القانون دون وجود أحكام عقلية لكانت المعرفة البشرية قاصرة جدا .

ان صرح علوم الرياضيات مثلا ما كان ليكون على هذه الشاكلة لولا أن هناك أحكاما عقلية زائدة على الأحكام العادية التى هى أثر معرفة ظواهر الكون وقوانينه . ومن استقراء شامل للكون قامت فى عقل الانسان قوانين العقل : قانون السببية وقانون الهوية وقانون الغائية . انه من استقراء شامل للكون أصبح فى حكم البديهية أن لكل حادثة سببا وأن الشىء هو عينه وليس غيره ، وأن لكل شىء فى هذا الكون حكمته التى تؤدى دورها فى خدمة هذا الكون كله ، وبالتالى فى خدمة الانسان .

وكأثر من تطبيق أحكام العقل وصل الانسان الى الايمان بالله . ومن خلال تطبيق أحكام العقل وصل الانسان الى الطريقة التى يتعرف بها على رسل الله وباستنتاج عقلى وبتبليغ من الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الله للانسان عرف الانسان أنه مكلف أمام الله وأن هناك أحكاما شرعية تحكمه وتحكم تصرفاته وأنه مكلف بها ، ومن ثم وجد نوع آخر من الأحكام سوى الأحكام العادية والأحكام العقلية هو الأحكام الشرعية التكليفية التى سنتكلم عنها بعد قليل .

وكما أن العلوم التى يقتضيها ضبط المشاهدة لاستخراج القانون أى الحكم العادى مطلوبة شرعا فشىء عادى أن تكون الأحكام العقلية الصحيحة معتمدة شرعا • ولا يعنى هذا أن يكون للانسان خيار فى قبول التكليف أو فى الحكم على التكليفات الالهية ، فالعقل مهمته التسليم للحكم التكليفى والشرع هو الذى يقرر الحسن والقبح واذن فعندما نتكلم عن الأحكام العقلية لا نقصد حكم الفكر البشرى فى قضية تكليفية بل نقصد حكم العقل فيما سوى ذلك اذ مهمة العقل البشرى بالنسبة للحكم التكليفى هو الاستحسان والتسليم ما دام قد وثق أن ذلك حكم الله لأن الله هو الأعلم والأحكم وحكمه هو الأحسن •

والأحكام الشرعية لا تلغى الأحكام العادية بل تكملها ، ولا تلغى الأحكام العقلية المحضة بل تكملها •

فالعقل اذن هو الذى يدرك الأحكام العادية ، وبه يكلف فى الأحكام الشرعية وله أحكامه الخالصة المحض التى هى محل تسليم من الشرع وعليه أن يسلم للشرع أحكامه فيكون دوره فيها دور الفاهم ودور المستنبط على ضوئها •

والنص الشرعى يفهم على ضوء الحكم العادى ، وعلى ضوء الحكم العقلى المحض اذ يستحيل أن يتناقض نص شرعى مع حكم عادى أو مع حكم عقلى محض •

الأحكام الشرعية

أنزل الله القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم وتعبد الناس بطاعة كتابه وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم فان الناس متعبدون بالكتاب والسنة وبالأحكام التى تنبثق عن الكتاب والسنة بالطريق التى حددتها نصوص الكتاب والسنة •

والكتاب كله متواتر ، والسنة منها المتواتر لفظا ومنها المتواتر معنى ومنها غير المتواتر ، وغير المتواتر فيه الصحيح والحسن ومنه الضعيف • ولكن بعض السنة الصحيحة مختلفا فيها ولكون بعض السنة الحسنة مختلفا فيها ولكون بعض الضعيف محل خلاف فان ذلك ترتب عليه ، اختلاف ما فى بعض الأحكام ولأن الكتاب والسنة بلغة العرب ، ولغة العرب واسعة المعانى وذات أساليب متعددة فى العرض من كناية الى

استعارة الى مجاز الى تشبيه فقد ترتب على فهم بعض النصوص خلاف بين الفقهاء •

والكتاب والسنة دلا على الاجماع ودلا على القياس ، وكأثر عن الاختلاف فى ماهية الاجماع وكأثر عن الاختلاف فى القياس وجدت خلافات فقهية فى بعض الأحكام •

وبعض الأئمة رأى من استقرائه العام للشريعة الاسلامية أنه حيث لا نص فالمصلحة هى شرع الله ، ولكن من الذى يقدر المصلحة ؟ هل هى الشورى من أهلها أو أهل العلم والاجتهاد ؟

وبعض الأئمة رأى أن قواعد الشريعة العامة تستخرج على ضوئها أحكام حيث لا نص صريحا فى الأمر •
وترتب على ذلك كله اختلافات فقهية •

ومن ثم كانت الأحكام الشرعية على أنواع : أحكاما معلومة من الدين بالضرورة وهى التى لا خلاف فيها بين الأئمة ويعلمها الخاص والعام لأن النصوص فيها قطعية الثبوت قطعية الدلالة ، وأحكاما مجمعا عليها وليست من باب المعلومات من الدين بالضرورة • وأحكاما اختلف فيها الأئمة المجتهدون فذهبوا بها مذاهب شتى •

كل هذه الأنواع من الأحكام هى أحكام شرعية ، وعلى هذا فكل ما لم تتله نصوص الكتاب والسنة أو لم يقل به امام ولا يوصل اليه استنباط على أصول امام فانه ليس من الأحكام الشرعية •

* * *

الأحكام الشرعية على ضوئها ينبغى أن يكون السير فاذا ما اجتمع للانسان أحكام عقلية صحيحة وأحكام عادية صحيحة ومعرفة بالأحكام الشرعية ، وسار على ضوء ذلك يكون على بصيرة من أمره واذا ما اجتمع للناس هذا كله وساروا على ضوئه فانهم يكونون على هدى واذا ما اختلط الأمر على الناس فعطلوا الأحكام الشرعية أو أهملوا الأحكام العادية أو العقلية أو لم يعرفوا محل الحكم العقلى والعادى من شرع الله ، أو ناقضوا بين الحكم العادى والحكم الشرعى أو الحكم العقلى مع الحكم الشرعى ، أو لم يعرفوا أصول استنباط الحكم الشرعى أو لم

يميزوا بين حكم شرعى مختلف فيه بين أئمة الاجتهاد وحكم لا خلاف فيه أو لم يميزوا بين الأصول والفروع فان ذلك كله يترتب عليه فساد ما .

* * *

ومن أجل ألا يقع هذا الفساد وجدت العلوم التى تخدم النصوص كعلم القراءات وعلوم القرآن وكعلوم الحديث ، فحرروا الصغيرة والكبيرة مما له علاقة فى النصوص ووجدت علوم اللغة العربية من صرف ونحو وعلوم بلاغة وعلم مفردات من أجل أن تفهم النصوص فهما صحيحا . ووجد علم أصول الفقه ليضبط موضوع استنباط الأحكام ووجد علم المنطق ليضبط الحكم العقلى والعادى . وعلى ضوء ذلك كله وجد علم العقائد الاسلامية . ووجد علم الفقه ، ومن أجل تذوق العقائد الاسلامية واقامة الأحكام الفقهية قام علم التصوف فى الأصل ، ثم بعد ذلك خرج عن أصل الوضع فبدلا من أن يكون تابعا لعلمى العقائد والفقه صار متبوعا فحدث نتيجة لذلك شر كبير .

وورث عصرنا جهد العصور فى ذلك كله .

ومن راغب فى المحافظة عليه كله مع التعصب للخطأ والصواب فيه ومن راغب فى وضع كل شىء فى محله ومن راغب أن ينسفه كله .

* * *